رحمة النبي صلى الله عليه وسلم

في القرآن الكريم

إعداد:

أ. حمدان بن لافي بن جابر العنزي

المحاضر في قسم الدراسات الإسلامية

جامعة الحدود الشمالية

مقدمة:

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله أما بعد:

فإن الله سبحانه وتعالى جمع لنبيه صلى الله عليه وسلم أنواع الفضائل، وجميل الأخلاق والشمائل، ووصفه بصفات الكمال، وأبعد عنه صفات النقص والمعايب، ومن أخص صفاته التي وصفه بها وله منها الحظ الأوفى، صفة الرحمة؛ فإن الله سبحانه وتعالى أرسله لذلك، فقال: **(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)** (الأنبياء).

ولإبراز هذه الرحمة التي وصف الله بها سبحانه وتعالى نبيه في آيات من كتابه؛ رأيت الكتابة عنها في هذ البحث المختصر الذي جعلت عنوانه: "رحمة النبي صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم"؛ كأحد البحوث المقدمة إلى المؤتمر الدولي عن الرحمة في الإسلام؛ والذي سيعقد في رحاب جامعة الملك سعود في مدينة الرياض، خلال الفترة 28- 30/ 4/ 1437 هـ.

فما كان فيه من صواب فمن الله وحده، وما كان فيه من خطأ فمن نفسي والشيطان، والله ورسوله بريئان.

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى تحقيق الأهداف التالية:

1. التعرف على الآيات التي وصف الله بها نبيه صلى الله عليه وسلم بالرحمة في القرآن الكريم.
2. تأصيل خلق الرحمة من خلال الآيات التي وصف الله بها نبيه صلى الله عليه وسلم بالرحمة، سواء أكان من خلال الألفاظ التي وردت فيها، أم من خلال المعاني التي تضمنتها.
3. إخراج دراسة قرآنية تجلي صفة الرحمة عند نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم، ليأخذ منها القارئ الكريم الدروس والعبر.

مشكلة البحث:

تتمثل في أنه وردت عدة آيات وصف بها الله نبيه صلى الله عليه وسلم بالرحمة، بألفاظ متنوعة، وبأساليب مختلفة، مما يستلزم معه جمع تلك الآيات، ومحاولة التعرف على تلك الألفاظ، وتلك الأساليب التي وردت في تلك الآيات، وتأصيل وبيان دلالتها على الرحمة.

حدود البحث:

سأقتصر في هذا البحث على دراسة الآيات، التي وصف الله فيها نبيه صلى الله عليه وسلم بالرحمة في القرآن الكريم، وهي أربع آيات [1]:

الأولى: قوله تعالى: **(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)** (آل عمران: 159).

الثانية: قوله تعالى: **(وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ)** (التوبة: 61).

الثالثة: قوله تعالى: **(بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)** (التوبة: 128).

الرابعة: قوله تعالى: **(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)** (الأنبياء).

أهمية البحث وأسباب اختياره:

دفعني لاختيار الموضوع الأسباب التالية:

1. شرفه؛ لكونه متعلقاً بالقرآن الكريم، وبنبي الرحمة صلى الله عليه وسلم.

([1]) اقتصرتُ على موضع الشاهد من الآية؛ وسيأتي ذكر الآية بتمامها في موضعها من البحث.

2. اشتمال عدد من آيات القرآن الكريم على وصف النبي صلى الله عليه وسلم بالرحمة؛ مما يستدعي جمع تلك الآيات، وإفرادها في بحث مستقل.

3. أن هذا البحث من أقل الواجب تجاه نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم؛ هذا من حيث العموم، فكيف إذا سمعنا من ينتقص منه صلى الله عليه وسلم، ويصفه صلى الله عليه وسلم ودينه بالغلظة وعدم الرحمة.

منهج البحث:

سلكت في هذا البحث المنهج الاستقرائي الاستنباطي.

خطة البحث:

وقد قسمتُ هذا البحث إلى مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة، وفهارس علمية، على النحو التالي:

المقدمة: وتشتمل على: أهداف البحث، ومشكلة البحث، وحدود البحث، وأهمية البحث وأسباب اختياره، ومنهج البحث، وخطة البحث، وإجراءات البحث.

التمهيد: ويشتمل على ما يلي:

أولاً: تعريف الرحمة في اللغة والاصطلاح.

ثانياً: إنعام الله سبحانه وتعالى وتفضله على نبيه صلى الله عليه وسلم بالرحمة.

المبحث الأول: الألفاظ ذات الصلة بالرحمة، الواردة في الآيات التي وصف الله بها نبيه صلى الله عليه وسلم بالرحمة، والمعاني التي تضمنتها، وتحته ثلاث مطالب:

المطلب الأول: لفظ اللين الموصوف به صلى الله عليه وسلم.

المطلب الثاني: الفظاظة والغلظة المنفية عنه صلى الله عليه وسلم.

المطلب الثالث: الرأفة والرحمة المجتمعة في وصفه صلى الله عليه وسلم.

المبحث الثاني: أنواع الرحمة التي وصف الله بها نبيه صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم، وتحته مطلبان:

المطلب الأول: رحمته صلى الله عليه وسلم للعالمين.

المطلب الثاني: رحمته صلى الله عليه وسلم للمؤمنين خاصة.

الخاتمة

فهرس المصادر والمراجع

إجراءات البحث:

يمكن تلخيص إجراءات البحث في التالي:

1. جمع الآيات التي تتعلق بموضوع رحمة النبي صلى الله عليه وسلم وتوزيعها حسب خطة البحث.
2. دراسة موضوع رحمة النبي صلى الله عليه وسلم في تلك الآيات، دراسة تحليلية مقارنة، وذلك من خلال جمع كلام المفسرين وغيرهم على تلك الآيات، ومحاولة تأصيل خلق الرحمة من خلال ذلك.
3. عزو الآيات وترقيمها؛ بذكر اسم السورة مع رقم الآية، ووضعها بين قوسين، وذلك بعد نهاية الآية المنقولة، وسأعتمد في نسخ نص الآية على مصحف المدينة.
4. تخريج الأحاديث الواردة في البحث، ونقل أقوال العلماء في الحكم عليها تصحيحا أو تضعيفا؛ إذا كان الحديث في غير الصحيحين.

5. إيضاح الكلمات الغريبة، وذلك بالرجوع إلى المصادر المعتمدة.

6. ختم البحث بخاتمة فيها أهم النتائج التي توصلت إليها.

7. تزويد البحث بالفهارس التالية: فهرس المصادر والمراجع، وفهرس الموضوعات.

التمهيد

ويشتمل على ما يلي:

أولاً: تعريف الرحمة في اللغة والاصطلاح.

أ – تعريف الرحمة في اللغة:

تدور مادة: (ر ح م) حول معنى الرقة، والعطف.

قال ابن فارس رحمه الله: "الرَّاء والحاء والميم أصل واحد، يدل على: الرقة والعطف والرأفة. يقال من ذلك: رحمه يرحمه إذا رق له، وتعطف عليه، والرحم والمرحمة والرحمة بمعنى" [1].

وقال ابن منظور رحمه الله: "الرحمة: الرقة والتعطف...، والرحمة في بني آدم: رقة القلب وعطفه" [2].

ب – تعريف الرحمة في الاصطلاح:

ذكر أهل العلم في تعريف الرحمة في الاصطلاح عدة تعريفات، مأخوذة من دلالة المعنى اللغوي للكلمة، ومن هذه التعريفات:

قول الراغب الأصفهاني رحمه الله: "الرحمة رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وقد تستعمل تارة في الرقة المجردة، وتارة في الإحسان المجرد عن الرقة، نحو رحم الله فلاناً" [1].

([1]) مقاييس اللغة، مادة رحم (3/ 398).

([2]) لسان العرب (12/ 231).

وقال الكفوي رحمه الله: "الرحمة حالة وجدانية تعرض غالبًا لمن به رقة القلب، وتكون مبدأ للانعطاف النفساني، الذي هو مبدأ الإحسان" [2].

وقال الشيخ عبد الرحمن الدوسري رحمه الله: "الرحمة هي لين القلب ودماثته، وتحننه على المرحوم" [3].

وعرفها بعض الباحثين بقوله: "رقة يجدها المخلوق في قلبه، تحمله على العطف والإحسان إلى سواه، ومواساته، وتخفيف آلامه" [4].

هذا ما يتعلق بتعريف الرحمة في حق المخلوق.

وأما الرحمة بالنسبة للخالق سبحانه وتعالى، فهي صفة من صفاته الذاتية الثابتة له جل جلاله، كما قال تعالى: **(وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ)** (الكهف: 58)، وهي أيضاً صفة فعلية يوصلها من شاء من خلقه كما قال جل جلاله، **(يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ)** (العنكبوت: 21)، وهي رحمة عامة لجميع الخلق، كما قال جل جلاله: **(إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)** (البقرة: 143)، ورحمة خاصة بالمؤمنين، كما قال جل جلاله: **(وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا)** (الأحزاب: 43) [5].

([1]) المفردات في غريب القرآن، مادة (رحم) (191).
([2])الكليات (ص 471).
([3]) صفوة الآثار والمفاهيم (4/ 387).
([4]) الرحمة في القرآن الكريم لموسى عسيري (ص 21، 22).
([5]) انظر: تنوير العقول والأذهان في تفسير مفصل القرآن (1/ 24).

ثانياً: إنعام الله سبحانه وتعالى وتفضله على نبيه صلى الله عليه وسلم بالرحمة

ذكر الله سبحانه وتعالي منته على نبيه صلى الله عليه وسلم بأن جعله رحيما رؤوفا بالمؤمنين، فقال: **(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ)** (آل عمران: 159) [1]؛ فأسند الرحمة إليه سبحانه وتعالي؛ لأنه المتفضل بها؛ ولأن إسنادها إليه يفيد عظمتها، وأنها رحمة عظيمة [2].

قال الراغب الأصفهاني رحمه الله: "ونبه بقوله: **(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ)** (آل عمران: 159) على نعمته على النبي صلى الله عليه وسلم أولاً، وعلى أمته ثانياً، كقوله: **(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ)** (التوبة: 128) الآية، وقوله: **(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)** الأنبياء" [3].

فبسب الرحمة العظيمة التي أنزلها على قلبه وخصه بها، كان على جانب عظيم من اللين واللطف بصحابته، بحيث لم يروا منه توبيخًا ولا تعنيفاً، بل تجد حقيقة الرحمة الإلهية المتمثلة في أخلاق رسوله صلى الله عليه وسلم، بحيث عمت جميع المؤمنين، ولا شك أن الله منحه رحمة عظيمة بجانب ما حصل منهم يوم أُحد [4].

وقد جاء في آيات أخر ما يؤيد هذا الإنعام والتفضل من الله سبحانه وتعالي علي نبيه بهذه الرحمة؛ وذلك بما أوحاه الله إليه من الوحي؛ فكان ذلك رحمة من الله له ولأمته، قال تعالى: **(وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ)** (القصص: 46).

([1]) انظر: بحر العلوم (1/ 285).
([2]) انظر: تفسير القرآن الكريم (2/ 362).
([3]) تفسير الرغب (2/ 590).
([4]) صفوة الآثار والمفاهيم (4/ 387).

فبعثة الرسول بما أوحاه الله إليه من الوحي رحمة من الله له ولهم [1]؛ فثبت بالدليل القطعي صحة رسالته، ورحمة الله به للعباد [2].

وقال تعالى: **(وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ)** (القصص: 86).

فالآية تذكير لنعمه سبحانه وتعالى على رسوله، وأنه سبحانه وتعالي رحمه رحمة لم يتعلق بها رجاؤه [3]، فالاستثناء في **(إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ)** استثناء منقطع؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يرجو أن يبعثه الله بكتاب من عنده، بل كان ذلك مجرد رحمة من الله سبحانه وتعالى به واصطفاء له [4]، فأرسله بهذا الكتاب، الذي رحم به العالمين، وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، وزكاهم وعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين [5].

([1]) انظر: جامع البيان (19/ 586).
([2]) انظر: تيسير الكريم الرحمن (ص 617).
([3]) انظر: البحر المحيط (7/ 132).
([4]) انظر: التحرير والتنوير (20/ 194).
([5]) انظر: تيسير الكريم الرحمن (ص 625).

المبحث الأول

الألفاظ ذات الصلة بالرحمة، الواردة في الآيات

التي وصف الله به نبيه صلى الله عليه وسلم بالرحمة ،

و المعاني التي تضمنتها

ورد في الآيات التي وصف الله فيها نبيه صلى الله عليه وسلم بالرحمة ألفاظ مقاربة للرحمة في معناها: كلفظي اللين والرأفة، وأخرى مُقَابِلة لها: كلفظي الفظاظة والغلظة المنفية عنه صلى الله عليه وسلم، وسأعرض لمعاني تلك الألفاظ ودلالتها على الرحمة من خلال المطالب التالية:

المطلب الأول

لفظ اللين الموصوف به صلى الله عليه وسلم

جعل الله لين نبيه صلى الله عليه وسلم مصاحبا لرحمة أودعها فيه [1]، كما قال تعالى: **(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)** (آل عمران: 159)، واللين ضد الخشونة، ويستعمل ذلك في الأجسام، ثم يستعار للخُلق وغيره من المعاني [2].

وعبر بالفعل الماضي في قوله: **(لِنْتَ)**؛ للدلالة على أن ذلك وصف تقرر وعرف من خُلُقِه، وأن فطرته على ذلك برحمة من الله، إذ خلقه كذلك، والله أعلم حيث يجعل رسالته [3].

أثنى الله سبحانه وتعالى في هذه الآية على نبيه باللين للمؤمنين [4]؛ إذ لم يؤاخذهم، ولم يفرط في القول معهم، ولم يسرع إليهم فيما كان منهم يوم أُحد [1].

([1]) انظر: التحرير والتنوير (4/ 145).
([2]) المفردات، مادة (لين) (ص 457).
([3]) انظر: التحرير والتنوير (4/ 145).
([4]) انظر: أضواء البيان (2/ 136).

قال الطبري رحمه الله: (**لِنْتَ لَهُمْ**) أي لأتباعك وأصحابك، فسُهلت لهم خلائقك، وحسنت لهم أخلاقك، حتى احتملت أذى من نالك منهم أذاه، وعفوت عن ذي الجرم منهم جرمَه، وأغضيت عن كثير ممن لو جفوت به وأغلظت عليه لتركك، ففارقك ولم يتَّبعك ولا ما بُعثت به من الرحمة، ولكن الله رحمهم ورحمك معهم، فبرحمة من الله لنت لهم" [2].

ومنشأ هذه الرحمة أن الله العليم الحكيم يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، هو الذي أعلمه بسلامة صدورهم، وأن ما حصل منهم ليس عن خيانة لدين الله ورسوله، وإنما حصل بسبب ملابسات شيطانية، منها الغرور بالانتصار بادئ الأمر؛ مما حدا ببعضهم إلى الطمع في الغنيمة وهم أهل الثغر، ثم صيحة الشيطان بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما حصل عليهم من الإرجاف من جهة المنافقين [3].

ومعاملته لهم صلى الله عليه وسلم بذلك؛ يدل على أنه ينبغي لمن له سيادة في قومه أن يكون لينا ليتعرض لرحمة الله جل جلاله؛ فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم سيد قومه بل سيد الأمة جميعاً، فألانه الله لهم [4].

قال ابن سعدي رحمه الله: "فالأخلاق الحسنة من الرئيس في الدين، تجذب الناس إلى دين الله، وترغبهم فيه، مع ما لصاحبه من المدح والثواب الخاص، والأخلاق السيئة من الرئيس في الدين تنفر الناس عن الدين، وتبغضهم إليه، مع ما لصاحبها من الذم والعقاب الخاص، فهذا الرسول المعصوم يقول الله له ما يقول، فكيف بغيره؟! أليس من أوجب الواجبات، وأهم المهمات، الاقتداء بأخلاقه الكريمة، ومعاملة الناس بما يعاملهم به صلى الله عليه وسلم، من اللين وحسن الخلق والتأليف، امتثالاً لأمر الله، وجذبا لعباد الله لدين الله" [5].

([1]) انظر: اللباب في علوم الكتاب (6/ 17).
([2]) جامع البيان (6/ 186).
([3]) انظر: صفوة الآثار والمفاهيم (4/ 387).
([4]) انظر: تفسير القرآن الكريم (2/ 367)، والعذب النمير (2/ 176).
([5]) تيسير الكريم الرحمن (ص 154).

المطلب الثاني

الفظاظة والغلظة المنفية عنه صلى الله عليه وسلم

من رحمة الله في حق نبيه صلى الله عليه وسلم أنه أعلمه مفاسد الفظاظة والغلظة، فقال سبحانه وتعالى له: **(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)** (آل عمران: 159) [1].

جاء القرآن الكريم بنفي الفظاظة والغلظة عنه صلى الله عليه وسلم، كما في هذه الآية الكريمة، وهو أيضاً ما جاء في صفته صلى الله عليه وسلم في الكتب السابقة للقرآن؛ فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: "أنه رأى صفة رسول الله في الكتب المتقدمة: أنه ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخاب [2] في الأسواق، ولا يجزى بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح" [3].

قال ابن حجر رحمه الله قوله: " ليس بفظ ولا غليظ": هو موافق لقوله تعالى: **(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)** (آل عمران: 159) [4].

واستأذن عمر بن الخطاب رضي الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم والنساء حوله: فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك، فقال عمر: "أضحك الله سنك يا رسول الله [5]، قال: عجبت من هؤلاء اللاتي كن عندي، فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب، قال عمر: فأنت يا رسول الله كنت أحق أن يهبن، ثم قال: أي عدوات أنفسهن، أتهبنني ولا تهبن رسول الله؟ قلن: نعم، أنت أفظ وأغلظ من رسول الله صلى الله عليه

([1]) انظر: صفوة الآثار والمفاهيم (4/ 388، 387).

([2]) السخب والصخب: بمعنى الصياح. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة سخب (2/ 884).

([3]) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب البيوع، باب كراهية السخب في الأسواق (2/ 747)، ح (2018).

([4]) فتح الباري (8/ 586).

([5]) قال ابن حجر رحمه الله: "قوله: أضحك الله سنك"، لم يرد به الدعاء بكثرة الضحك؛ بل لازمه، وهو السرور، أو نفي ضد لازمه وهو الحزن" فتح الباري (7/ 47).

وسلم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان قط سالكا فجا إلا سلك فجا غير فجك" [1].

وفي سر الجمع بين الفظاظة والغلظة في الآية الكريمة، وفي الحديث الشريف رأيان لأهل العلم:

الرأي الأول: أن الفظاظة والغلظة بمعنى واحد، وجمع بينهما للتأكيد.

قال ابن الجوزي رحمه الله: " فأما الغليظ القلب فقيل: هو القاسي القلب، فيكون ذكر الفظاظة والغلظة وإن كانا بمعنى واحد توكيداً" [2].

وهذا ما ذكره بعض أهل العلم أيضًا في سر الجمع بين الفظاظة والغلظة، فيما وصف به النساء عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

قال النووي رحمه الله: "قوله: "قلن: أنت أفظ وأغلظ من رسول الله"، الفظ والغليظ بمعنى، وهو عبارة عن شدة الخلق، وخشونة الجانب" [3].

الرأي الثاني: أن الفظاظة والغلظة ليسا بمعنى واحد، والجمع بينهما ليس للتأكيد

وهذا يستدعي عرض أقوال أهل العلم في المراد بكل منهما، فأقول وبالله التوفيق:

أما قوله: (**فَظًّا**).

([1]) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب فضائل أصحاب النبي، باب مناقب عمر بن الخطاب أبي حفص القرشي العدوي رضي الله عنه (3/ 1347)، ح (3480) ومسلم في صحيحه كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر رضي الله عنه، (4/ 1863)، ح (2396).

([2]) زاد المسير (1/ 486)، وانظر: النكت والعيون (1/ 433)، والبحر المحيط (3/ 104).

([3]) شرح النووي على مسلم (15/ 165).

فيقول ابن فارس رحمه الله: " الفاء والظاء كلمةٌ تدلُّ على كراهةٍ وتكرُّه. من ذلك الفظ: ماء الكرش. وافتظ الكرش، إذا اعتصر، قال بعض أهل اللغة: إن الفظاظة من هذا. يقال رجل فظ: كريه الخلق. وهو من فظ الكرش، لأنه لا يتناول إلا ضرورة على كراهة" [1].

والفظاظة في الآية راجع إلى عدم اللين في الكلام، وإلى سوء الأخلاق؛ وهو ما ذكره المفسرون بقولهم: الفظاظة الجفوة في المعاشرة قولا وفعلاً [2].

وأما قوله: (**غَلِيظَ الْقَلْبِ**).

فيقول ابن منظور رحمه الله: " الغُلْظُ والغِلْظُ: ضد الرقة في الخلق والطبع والفعل والمنطق والعيش ونحو ذلك، ورجل غليظ: فيه غلظة وفظاظة وقساوة وشدة. وفي التنزيل: (**فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ**) [3].

فالمراد بقوله: (**غَلِيظَ الْقَلْبِ**) أي: قاسي القلب. وعلى هذا القول جمهور المفسرين [4].

إن التفريق بين الفظاظة والغلظة في المعنى أولى من القول أنهما بمعنى واحد والجمع بينهما للتأكيد، وهو الذي تعضده قاعدة من قواعد الترجيح عند المفسرين وهي: قاعدة: التأسيس أولى من التأكيد [5].

قال ابن كثير رحمه الله: "والفظ الغليظ، والمراد به هاهنا غليظ الكلام لقوله بعد ذلك: (**غَلِيظَ الْقَلْبِ**) أي: لو كنت سيء الكلام؛ قاسي القلب عليهم، لانفضوا عنك وتركوك، ولكن الله جمعهم عليك، والان جانبك لهم تأليفا لقلوبهم" [6].

([1])مقاييس اللغة، مادة فظ (4/ 441).

([2]) انظر: المحرر الوجيز (1/ 533)، والبحر المحيط (3/ 104)، وإرشاد العقل السليم (2/ 105).

([3]) لسان العرب، مادة غلظ (7/ 449).

([4]) انظر: جامع البيان (5/ 151)، وتفسير القرآن للسمعاني (1/ 372)، والكشاف (1/ 459).

([5]) انظر: قواعد الترجيح عند المفسرين (2/ 473).

([6]) تفسير القرآن العظيم (2/ 148).

وقال السمين الحلبي رحمه الله: "الفظاظة: الجفوة في العشرة قولا وفعلاً، والغِلْظُ: قساوة القلب، وهذا أحسن مِنْ قول من جعلهما بمعنىً، وجمع بينهما تأكيداً" [1].

ومما ينبغي الإشارة إليه هنا أن قوله تعالى: **(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)** (آل عمران: 159) لا يعارض قوله تعالى: **(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)** (التوبة: 73، والتحريم: 9).

قال ابن حجر رحمه الله في معرض شرحه لحديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: "إنه رأى صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في الكتب المتقدمة: أنه ليس بفظ ولا غليظ": "قوله: "ليس بفظ ولا غليظ": هو موافق لقوله: **(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)** (آل عمران: 159)، ولا يعارض قوله تعالى: **(وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ)** (التوبة: 73)؛ لأن النفي محمول على طبعه الذي جبل عليه، والأمر محمول على المعالجة، أو النفي بالنسبة للمؤمنين والأمر بالنسبة للكفار والمنافقين، كما هو مصرح به في نفس الآية" [2].

وكذلك في قول النساء لعمر رضي الله عنه: " أنت أفظ وأغلظ من رسول الله" فإنه يفهم منه الاشتراك بين النبي صلى الله عليه وسلم وعمر رضي الله عنه في أصل الفعل، وهو الفظاظة والغلظة، وهذا أيضاً يعارض قوله تعالى: **(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)** (آل عمران: 159).

قال ابن حجر رحمه الله: "قوله: "أنت أفظ وأغلظ" صيغة أفعل التفضيل من الفظاظة والغلظة؛ وهو يقتضي الشركة في أصل الفعل، ويعارضه قوله تعالى: **(وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)** إنه يقتضي أنه لم يكن

([1]) الدر المصون (3/ 463).

([2]) فتح الباري (8/ 586).

فظا ولا غليظاً، والجواب: أن الذي في الآية يقتضي نفي وجود ذلك له صفة لازمة فلا يستلزم ما في الحديث ذلك، بل مجرد وجود الصفة له في بعض الأحوال وهو عند إنكار المنكر مثلا – والله أعلم –" [1].

وقال النووي رحمه الله في شرحه لحديث عمر رضي الله عنه: "وفي هذا الحديث فضل لين الجانب والحلم والرفق ما لم يفوت مقصوداً شرعياً، قال الله تعالى: **(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ)** (الحجر: 88)، وقال تعالى: **(وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)** (آل عمران: 159)، وقال تعالى: **(بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)** (التوبة: 128) [2].

وقال ابن كثير رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: **(اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)** (المائدة: 8)، وقوله: **(هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)** من باب استعمال أفعل التفضيل في المحل الذي ليس في الجانب الآخر منه شيء، كما في قوله تعالى: **(أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا)** (الفرقان)، وكقول بعض الصحابيات لعمر رضي الله عنه: "أنت أفظ وأغلظ من رسول الله صلى الله عليه وسلم" [3].

وحمل ابن عطية غلظة عمر رضي الله عنه على الشدة في دين الله، فقال رحمه الله: "قال الجواري لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: "أنت أفظ وأغلظ من رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ الحديث، وفظاظة عمر بن الخطاب رضي الله عنه إنما كانت مستعملة منه آلة لعضد الحق، والشدة في الدين" [4] – والله تعالى أعلم –.

فرحمة النبي صلى الله عليه وسلم لا يقاربه فيها أحد من الخلق، وهذه الرحمة ظهرت آثارها في معاملته للخلق، ولا تنافي قوة القلب وصبره، فقد كان أصبر الخلق وأشجعهم وأقواهم قلباً مع كمال رحمته، فقوة القلب من آثارها الصبر والحلم والشجاعة القولية والفعلية، والقيام التام بأمر الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ورحمة القلب من آثارها:

([1]) فتح الباري (8/ 586).
([2]) شرح النووي على مسلم (15/ 165).
([3]) تفسير القرآن العظيم (3/ 62).
([4]) المحرر الوجيز (3/ 396).

الشفقة والحنو والنصيحة، وبذل الإحسان المتنوع، فأي أخلاق تقارب هذه الأخلاق السامية الجلية. فقوة القلب وشجاعته تنفي الضعف والخور، ورحمته تنفي القسوة والغلظة والشراسة [1].

المطلب الثالث

الرأفة والرحمة المجتمعة في وصفه صلى الله عليه وسلم

كانت سورة التوبة سورة شدة وغلظة على المشركين وأهل الكتاب والمنافقين من أهل المدينة ومن الأعراب، وأمراً للمؤمنين بالجهاد، وإنحاء على المقصرين في شأنه، فجاءت خاتمة هذه السورة بتذكير المؤمنين بالمنة ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم، ومن مظاهر الرحمة التي جعلها الله سبحانه وتعالى مقارنة لبعثة رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله: **(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)** (الأنبياء)؛ أن جاء بما يزيل الحرج من قلوب الذين نزلت فيهم آيات الشدة، وعوملوا بالغلظة، تعقيبًا للشدة بالرفق، وللغلظة بالرحمة، فقال تعالى: **(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)** (التوبة) [2].

وصف الله سبحانه وتعالى رسوله بصفتين من صفاته العلى، وسماه باسمين من أسمائه الحسنى، فإنه قال: **(بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)** وقال: **(إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)** (البقرة: 143) وهذا نهاية الكرامة [3].

وجمهور أهل العلم على أن الرَّأفة أخص من الرحمة، ومما ذكروه على هذا المعنى قولهم:

الرأفة: أشد الرحمة [4]، أو الرأفة: أعلى معاني الرحمة [5]، أو الرأفة: ألطف الرحمة وأرقها [6].

([1]) انظر: فتح الرحيم الملك العلام في علم العقائد والتوحيد والأخلاق والأحكام المستنبطة من القرآن (ص 114).
([2]) انظر: التحرير والتنوير (11/ 70).
([3]) انظر: تفسير القرآن للسمعاني (2/ 363)، والجامع لأحكام القرآن (10/ 442).
([4]) انظر: مجاز القرآن (1/ 59)، وتفسير القرآن للسمعاني (5/ 379)، ومعالم التنزيل (1/ 124).
([5]) انظر: جامع البيان (2/ 18)، والمحرر الوجيز (1/ 221).
([6]) انظر: مدارج السالكين (1/ 518).

قال الزجاج رحمه الله: "الرأفة هي المنزلة الثانية، يقال: فلان رحيم، فإذا اشتدت رحمته فهو رءوف" [1].

فالرأفة رحمة خاصة، تتعلق بدفع الأذى والضر، أما الرحمة فهي أشمل وأعم؛ لأنها عطف وشفقة على كل من كان في حاجة إليها [2].

وتقديم الرأفة باعتبار أن آثارها دفع المضار؛ وتأخير الرحمة باعتبار أن آثارها جلب المنافع والأول أهم من الثاني؛ فهو صلى الله عليه وسلم يسعى بشدة في إيصال الخير والنفع للمؤمنين، وفي إزالة كل مكروه عنهم [3].

ولما كانت الرأفة والرحمة خاصة جاء متعلقها خاصا وهو قوله: **(بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)** [4]؛ للاهتمام بالمؤمنين في توجه صفتي رأفته ورحمته بهم، وأما رحمته العامة الثابتة بقوله تعالى: **(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)** (الأنبياء)، فهي رحمة مشوبة بشدة على غير المؤمنين، فهو بالنسبة لغير المؤمنين رائف وراحم، ولا يقال: بهم رؤوف رحيم [5].

قال محمد رشيد رضا رحمه الله: "وتخصيص رأفته ورحمته صلى الله عليه وسلم بالمؤمنين في مقابلة ما أمر به من الغلظة على الكفار والمنافقين – لا يعارض كون رسالته رحمة للعالمين، كما هو ظاهر، فإن هذه الرحمة مبذولة لجميع الأمم، لعموم بعثته صلى الله عليه وسلم، ولكن منهم من قبلها، ومنهم من ردها، وقد بينا في تفسير **(وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ)** (التوبة: 73) أنه إنما أمر بذلك صلى الله عليه وسلم، لأن الغالب على طبعه الشريف الرقة والرحمة والأدب في المقابلة والمعاشرة، وقد قال تعالى: **(وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)** (آل عمران: 159) [6].

([1]) تفسير أسماء الله الحسنى (ص 62).
([2]) انظر: التحرير والتنوير (27/ 421).
([3]) انظر: روح المعاني (11/ 52).
([4]) انظر: البحر المحيط (5/ 120).
([5]) انظر: التحرير والتنوير (11/ 73).
([6]) تفسير المنار (11/ 72).

وقد تنوعت عبارات المفسرين في معنى رأفته ورحمته صلى الله عليه وسلم بالمؤمنين، فقيل: رؤوف بالمطيعين، رحيم بالمذنبين، وقيل: رؤوف بمن رآه، رحيم بمن لم يره، وقيل: رؤوف بأقربائه، رحيم بغيرهم [1].

والظاهر تعلق الصفتين بجميع المؤمنين دون تخصيص [2].

قال الآلوسي رحمه الله : "وزعم بعضهم أن المراد: رؤوف بالمطيعين منهم، رحيم بالمذنبين، وقيل: رءوف بأقربائه، رحيم بأوليائه، وقيل: رؤوف بمن يراه، رحيم بمن لم يره، ولا مستند لشيء من ذلك" [3].

- والله تعالي أعلم -.

([1]) انظر: الكشف والبيان (5/ 114)، والبحر المحيط (5/ 122).
([2]) انظر: البحر المحيط (5/ 122).
([3]) روح المعاني (11/ 53، 54).

المبحث الثاني

أنواع الرحمة التي وصف الله بها نبيه صلى الله عليه وسلم

في القرآن الكريم

تنوعت الرحمة التي وصف الله بها نبيه صلى الله عليه وسلم في الآيات التي وردت فيها، وسيكون الحديث عنها من خلال المطالب التالية:

المطلب الأول

رحمته صلى الله عليه وسلم للعالمين

إرسال النبي صلى الله عليه وسلم من أعظم النعمة على الخلق، وفيه أعظم حكمة للخالق، ورحمة منه لعباده، كما قال تعالى: **(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)** (الأنبياء) [1].

اشتملت هذه الآية بوجازة ألفاظها على مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، ومدح مرسله سبحانه وتعالي، ومدح رسالته؛ بأن كانت مظهر رحمة الله سبحانه وتعالى للناس كافة، وبأنها رحمة الله سبحانه وتعالى بخلقه [2].

والرحمة على عمومها [3] في الآية الكريمة، وهذا العموم يحتمل وجهين:

أحدهما: أن عموم العالمين حصل لهم النفع برسالته [1]، لأن الناس كانوا ثلاثة أصناف: مؤمن، وكافر، ومنافق، وكان رحمة للمؤمنين، حيث هداهم طريق الجنة، ورحمة للمنافقين، حيث أمنوا القتل، ورحمة للكافرين بتأخير العذاب [2].

([1]) انظر: مجموع الفتاوى (8/ 93).

([2]) انظر: التحرير والتنوير (17 / 165).

([3]) وذهب عبدالرحمن بن زيد إلى أن المراد بالعالمين: المؤمنون خاصة، فهو رحمة للمؤمن. انظر معالم التنزيل (5/ 359). قال الشوكاني رحمه الله: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) (الأنبياء) أي وما أرسلناك يا محمد بالشرائع والأحكام إلا رحمة لجميع الناس...، وقيل المراد بالعالمين: المؤمنون خاصة، والأول أولي؛ بدليل قوله سبحانه وتعالى: **(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)** (الأنفال": 33) فتح القدير (3/ 587).

قال ابن القيم رحمه الله: "وأصح القولين في قوله تعالى: **(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)** (الأنبياء)، أنه على عمومه، وفيه على هذا التقدير وجهان:

أحدهما: أن عموم العالمين حصل لهم النفع برسالته، أما أتباعه فنالوا بها كرامة الدنيا والآخرة، وأما أعداؤه المحاربون له، فالذين عجل قتلهم وموتهم خير لهم من حياتهم؛ لأن حياتهم زيادة لهم في تغليظ العذاب عليهم في الدار الآخرة، وهم قد كتب عليهم الشقاء، فتعجيل موتهم خير لهم من طول أعمارهم في الكفر، وأما المعاهدون له فعاشوا في الدنيا تحت ظله وعهده وذمته، وهم أقل شراً بذلك العهد من المحاربين له، وأما المنافقون فحصل لهم بإظهار الإيمان به حقن دمائهم وأموالهم وأهلهم واحترامها، وجريان أحكام المسلمين عليهم في التوارث وغيرها، وأما الأمم النائية عنه، فإن الله سبحانه وتعالى رفع برسالته العذاب العام عن أهل الأرض، فأصاب كل العالمين النفع برسالته" [3].

الوجه الثاني: أنه رحمة للناس كلهم، فمن قَبِل هذه الرحمة وشكَر هذه النعمةَ، سَعد في الدنيا والآخرة، ومن رَدّها وجحدها خسر في الدنيا والآخرة [4].

قال ابن القيم رحمه الله: " الوجه الثاني: أنه رحمة لكل أحد، لكن المؤمنون قبلوا هذه الرحمة فانتفعوا بها دنيا وأخرى، والكفار ردوها، فلم يخرج بذلك عن أن يكون رحمة لهم، لكن لم يقبلوها، كما يقال: هذا دواء لهذا المرض، فإذا لم يستعمله لم يخرج عن أن يكون دواء لذلك المرض" [5].

وقال ابن جُزي رحمه الله: "فإن قيل رحمة للعالمين عموم، والكفار لم يرحموا به؟ فالجواب: أنهم كانوا معرضين للرحمة به لو آمنوا، فهم الذين تركوا الرحمة بعد تعريضها لهم" [1].

([1]) وهو الذي رجحه الطبري رحمه الله. انظر: جامع البيان (18 / 552).

([2]) انظر: بحر العلوم (2/ 445).

([3]) جلاء الأفهام (ص 289، 288).

([4]) وهذا الوجه رجحه ابن كثير، والشنقيطي، وابن سعدي – رحمهم الله –.
انظر: تفسير القرآن العظيم (5/ 385)، وأضواء البيان (4/ 288)، وتيسير الكريم الرحمن (ص 532).

([5]) جلاء الأفهام (ص 289).

وقال الشنقيطي رحمه الله: عند تفسير قوله تعالى: **(وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ)** (التوبة: 61)، "في هذه الآية سؤال معروف؛ وهو أن الله سبحانه وتعالى قال في آية براءة هذه: **(وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ)** فقيد كونه رحمة للذين آمنوا، وفي سورة الأنبياء قال: **(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)** (الأنبياء)، فلم يقيد كونه رحمة بالإيمان، بل قال لجميع العالمين.

والجواب عنه: أن الله جل جلاله أرسله صلى الله عليه وسلم رحمة لجميع الخلائق، إلا أن بعضهم قبل من الله التفضل بتلك الرحمة فحازها، فخص في قوله: **(وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ)** وبعضهم لم يقبلها ولم يحزها، ولا ينافي ذلك أن الله أعطاه تلك الرحمة إلا أنه لم يقبلها ولم يحزها.

وضرب العلماء لهذا مثلاً، قالوا: لو أن سلطان البلد مثلا – ولله المثل الأعلى – أرسل لجميع سكان البلد إنعاما كثيرا كأن أجرى لهم المياه تأتيهم، وأجرى عليهم الأرزاق والنعم، وبعضهم امتنع أن يأخذ، وبعضهم أخذ، فلا ينافي أنه أنعم على الجميع. فالله أرسله رحمة للعالمين، بعض الناس قبل من الله فضله، وبعضهم لم يقبل فضله، ولا ينافي ذلك أنه تفضل عليهم ببعثه صلى الله عليه وسلم" [2].

فالرحمة صفة متمكنة من إرساله صلى الله عليه وسلم، كما أخبر الله عنه في قوله: **(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)**؛ وكما أخبر صلى الله عليه وسلم عن نفسه بقوله: "إنما أنا رحمة مهداة" [3].

([1]) التسهيل لعلوم التنزيل (3/ 34).

([2]) العذب النمير (5/ 601، 600). وانظر: الكشاف (3/ 139)، وتفسير القرآن العظيم (5/ 385)، وأضواء البيان (4/ 288).

([3]) أخرجه الحاكم في المستدرك (1/ 91)، ح (100)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال: "هذا حديث صحيح على شرطهما"، وصححه الألباني في صحيح الجامع (1/ 463).

وظهرت هذه الرحمة في مظهرين: الأول: تخلق نفسه الزكية بخلق الرحمة، ولهذا خص الله محمدا صلى الله عليه وسلم في سورة الأنبياء بوصف الرحمة ولم يصف به غيره من الأنبياء، والثاني: إحاطة الرحمة بتصاريف شريعته ففيها من مقومات الرحمة العامة للخلق كلهم [1] – والله تعالى أعلم –.

المطلب الثاني

رحمته صلى الله عليه وسلم للمؤمنين خاصة

كان النبي صلى الله عليه وسلم يسعى في إيصال الخير والرحمة إلى المنافقين، مع كونهم في غاية الخبث والخزي، ثم إنهم بعد ذلك يقابلون إحسانه بالإساءة وخيراته بالشرور [2]، كما قال تعالى: **(وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)** (التوبة).

وقد جرأهم على ذلك إغضاؤه صلى الله عليه وسلم عن إجرامهم وإمهالهم حتى يتمكن من الإيمان من وفقه الله للإيمان منهم [3]، فإنه لو أمره الله سبحانه وتعالى أن يعاملهم بما يخفون من الكفر، لكان ذلك أمرا بقطع رقابهم، وبقاؤهم خير لهم بالمعنى الذي يعتقدونه من لفظ الخير، وخير لهم في نفس الأمر؛ لأنه إمهال لهم، يرجى أن يتوب بسببه من فيه استعداد للإيمان منهم بما يراه من آيات الله وتأييده لرسوله وللمؤمنين [4].

([1]) انظر: التحرير والتنوير (17/ 165).
([2]) انظر: التفسير الكبير للرازي (16/ 94).
([3]) انظر: التحرير والتنوير (10/ 243).
([4]) البحر المحيط (5/ 64). وانظر: العذب النمير (5/ 601).

وخص المؤمنين في قوله: **(وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ)** وإن كان رحمة للعالمين؛ لأن ما حصل لهم بالإيمان بسبب الرسول لم يحصل لغيرهم، وخصوا هنا بالذكر، وإن كانوا قد دخلوا في العالمين لحصول مزيتهم [1].

وعلى هذا يكون المراد بالذين آمنوا في قوله: **(وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ)** من اتبعه واهتدى بهداه، وصدَّق بما جاء به من عند ربه؛ لأن الله استنقذهم به من الضلالة، وأورثهم باتباعه جناته [2].

ولذا قال أبو الليث السمرقندي رحمه الله في قوله تعالى: **(لِلَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ)** في السر والعلانية" [3].

ويؤيد هذا القول: قوله تعالى: **(وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ)** يدل على أن إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم بالقول أو الفعل ينافي الإيمان الذي هو سبب الرحمة، فجزاؤه ضد جزائه، وهو العذاب الشديد الإيلام [4].

وقيل المراد بالذين آمنوا هنا: المتظاهرون بالإيمان المبطنون للكفر، وهم المنافقون [5].

وكونه رحمة لهم؛ لأنه قبل منهم الإيمان الظاهر، لا تصديقا لهم، بل رفقا بهم، ولم يكشف أسرارهم ولم يهتك أستارهم، وأنه رحمة لهم بقبول ظواهرهم ومعاملتهم بها معاملة المؤمنين [6].

ويؤيد هذا أن الله قال: **(لِلَّذِينَ آَمَنُوا)** فعبر عنهم بالفعل، ولم يقل المؤمنين بالوصف [7].

([1]) انظر: البحر المحيط (5/ 64).

([2]) انظر: جامع البيان (18/ 552)، وهو الذي رجحه ابن عاشور، ومحمد رشيد رضا وانتصر له.
انظر: التحرير والتنوير (10/ 244)، وتفسير المنار (10/ 448).

([3]) بحر العلوم (2/ 69).

([4]) انظر: تفسير المنار (10/ 449).

([5]) انظر: التحرير والتنوير (10/ 244).

([6]) وهو الذي اختاره: الزمخشري، وأبو السعود، والشوكاني، والآلوسي. انظر: الكشاف (2/ 271)، وإرشاد العقل السليم (4/ 77) وفتح القدير (2/ 429)، وروح المعاني (10/ 127).

([7]) انظر: تفسير المنار (10/ 448).

وهذا القول لم يرتضه عدد من أهل العلم؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم إنما بعث رحمة لمن آمن به حقا، وأما غير المؤمنين فإنهم لم يقبلوا هذه الرحمة بل ردوها، فخسروا دنياهم وآخرتهم [1].

وأما قولهم: أن الله قال: **(لِلَّذِينَ آَمَنُوا)** فعبر عنهم بالفعل، ولم يقل المؤمنين بالوصف؛ فهذا القول ضعيف؛ لأن كثيرا ما ناط التنزيل الجزاء على الإيمان بالتعبير عن أهله بالفعل الماضي [2].

وأما تفسيرهم كونه رحمة بالمنافقين بستره عليهم وقبول الإيمان منهم ظاهرًا؛ فهو خطأ أيضًا؛ لأن ذلك يعتبر استدراجًا من الله لهم، وكيف يكون رحمة لهم، وهم يعيشون في الدنيا في أسوأ حال، وهم يتوقعون في كل يوم أن يوقع بهم النبي صلى الله عليه وسلم إذا انكشفوا وظهرت حقيقتهم، وسيؤول أمرهم في الآخرة إلى أسوأ حال، حيث يكونون في الدرك الأسفل من النار؟ [3] – والله تعالى أعلم.

([1]) انظر: تيسير الكريم الرحمن (ص 341)، وتفسير المنار (10/ 448)، وتفسير المراغي (10/ 148)، والمنافقون في القرآن الكريم (ص 419).

([2]) انظر: تفسير المنار (10/ 448).

([3]) انظر: المنافقون في القرآن الكريم (ص 419).

الخاتمة

أحمد الله سبحانه وتعالى الذي من على بإتمام هذا البحث، وفيما يأتي أوجز ما توصلت إليه من نتائج:

1. الرحمة في اللغة: هي الرقة، والعطف.

2. الرحمة في الاصطلاح: هي لين القلب ودماثته، وتحننه على المرحوم.

3. الرحمة بالنسبة لله جل جلاله صفة من صفاته الذاتية الثابتة له، وهي أيضاً صفة فعلية يوصلها من شاء من خلقه، وهي رحمة عامة لجميع الخلق، ورحمة خاصة بالمؤمنين.

4. امتن الله سبحانه وتعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم بالرحمة، ورحم أمته به كما قال تعالى: **(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ)** وفي إسنادها إليه يفيد عظمتها، وأنها رحمة عظيمة.

5. اللين ضد الخشونة، ويستعمل ذلك في الأجسام، ثم يستعار للخُلق وغيره من المعاني.

6. ينبغي لمن له سيادة في قومه أن يكون ليناً ليتعرض لرحمة الله جل جلاله؛ فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم سيد قومه، بل سيد الأمة جميعاً فألانه الله لهم.

7. من رحمة الله في حق نبينه صلى الله عليه وسلم أنه أعلمه مفاسد الفظاظة والغلظة، فقال سبحانه وتعالى له: **(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)** (آل عمران: 159).

8. جاء القرآن الكريم بنفي الفظاظة والغلظة عنه صلى الله عليه وسلم، والفظاظة راجعة إلى عدم اللين في الكلام، وإلى سوء الأخلاق، والغلظة قساوة القلب.

9. وصف الله سبحانه وتعالى رسوله بصفتين من صفاته العلي، وسماه باسمين من أسمائه الحسنى، فإنه قال: (**بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**) وهذا نهاية الكرامة.

10. الرأفة: أعلى معاني الرحمة.

11. تقديم الرأفة على الرحمة في قوله: (**بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**) (التوبة: 128) باعتبار أن آثارها دفع المضار؛ وتأخير الرحمة باعتبار أن آثارها جلب المنافع والأول أهم من الثاني.

12. الظاهر تعلق الصفتين في قوله: (**بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**) (التوبة: 128) بجميع المؤمنين دون تخصيص.

13. الرحمة على عمومها في قوله تعالى: (**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**) (الأنبياء) وهذا العموم يحتمل وجهين: أن عموم العالمين حصل لهم النفع برسالته؛ لأن الناس كانوا ثلاثة أصناف: مؤمن، وكافر، ومنافق. وكان رحمة للمؤمنين، حيث هداهم طريق الجنة، ورحمة للمنافقين حيث أمنوا القتل، ورحمة للكافرين بتأخير العذاب، والوجه الثاني: أنه رحمة للناس كلهم، فمن قَبِل هذه الرحمة وشكَر هذه النعمةَ، سَعد في الدنيا والآخرة، ومن رَدّهَا وجحدها خسر في الدنيا والآخرة.

14. الرحمة صفة متمكنة من إرساله صلى الله عليه وسلم، وظهرت هذه الرحمة في مظهرين: الأول: تخلق نفسه الزكية بخلق الرحمة، والثاني: إحاطة الرحمة بتصاريف شريعته؛ ففيها من مقومات الرحمة العامة للخلق كلهم.

15. خص الله المؤمنين بالرحمة في قوله: (**وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ**) وإن كان رحمة للعالمين؛ لأن ما حصل لهم بالإيمان بسبب الرسول لم يحصل لغيرهم، وخصوا هنا بالذكر وإن كانوا قد دخلوا في العالمين لحصول مزيتهم.

16. ثبوت رحمة النبي صلى الله عليه وسلم للمنافقين أخذاً من قوله تعالى (**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**) الأنبياء: 107)، وأما حمل الرحمة في قوله: (**وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ**) (التوبة: 61)، على المنافقين، وأنه صلى الله عليه

وسلم رحمة لهم بقبول ظواهرهم ومعاملتهم بها معاملة المؤمنين؛ فلم يرتضه عدد من أهل العلم؛ وأن الرحمة في الآية الكريمة للمؤمنين دون غيرهم.

والله تعالي أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فهرس المصادر والمراجع:

1. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي أبو السعود، ط 4، دار إحياء التراث العربي، بيروت: 1414 هـ/ 1994 م.

2. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، إشراف: بكر بن عبدالله أبو زيد، ط 1، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة: 1426 هـ/ 2006 م.

3. بحر العلوم، نصر بن محمد بن أحمد السمرقندي، تحقيق د. محمود مطرجي، دار الفكر، بيروت: بدون.

4. البحر المحيط، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت: 1422 هـ/ 2001 م.

5. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس: بدون.

6. التسهيل لعلوم التنزيل، محمد بن أحمد بن محمد الغرناطي الكلبي، ط 1، دار الكتاب العربي، لبنان: 1403 هـ/ 1983 م.

7. تفسير أسماء الله الحسنى، إبراهيم بن محمد بن سهل الزجاج، تحقيق: أحمد يوسف الدقاق، دار الثقافة العربية، دمشق: 1974 م.

8. تفسير الراغب الأصفهاني من سورة آل عمران وحتى نهاية الآية (112) من سورة النساء، الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق ودراسة د. عادل بن علي الشدي، ط 1، مدار الوطن، الرياض: 1424 هـ/ 2003 م.

9. تفسير القرآن، أبو المظفر منصور بن محمد بن عبدالجبار السمعاني، تحقيق: ياسر بن إبراهيم، وغنيم بن عباس بن غنيم، ط 1، دار الوطن، الرياض: 1418 هـ/ 1997 م.

10. تفسير القرآن الحكيم المشتهر بتفسير المنار، محمد رشيد رضا، ط 2، دار المنار، القاهرة: 1336 هـ/ 1947 م.

11. تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن عمرو بن كثير القرشي تحقيق: سامي بن محمد السلامة، ط 2، دار طيبة، الرياض: 1420 هـ/ 1999 م.

12. تفسير القرآن الكريم (سورة آل عمران)، محمد بن صالح العثيمين، ط 1، دار ابن الجوزي، الدمام: 1426 هـ/ 2005 م.

13. التفسير الكبير، فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت: 1421 هـ/ 2000 م.

14. تنوير العقول والأذهان في تفسير مفصل القرآن، أ. د. سليمان بن إبراهيم اللاحم، ط 1، دار العاصمة، الرياض: 1429 هـ/ 2008 م.

15. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، ط 4، مؤسسة الرسالة، بيروت: 1426 هـ/ 2005 م.

16. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير بن يزيد الطبري، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط 1، دار عالم الكتب، الرياض: 1424 هـ/ 2003 م.

17. الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، محمد ابن أحمد بن أبي بكر القرطبي، تحقيق د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ط 1، مؤسسة الرسالة، بيروت: 1427 هـ/ 2006 م.

18. الرحمة في القرآن الكريم، موسى عبده عسيري، ط 1، مكتبة الرشد، الرياض: 1412 هـ/ 1991 م.

19. جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على محمد خير الأنام، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق: مشهور بن حسن سلمان، ط 3، دار ابن الجوزي، الدمام: 1420 هـ/ 1999 م.

20. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، أحمد بن يوسف السمي الحلبي، تحقيق: د. أحمد الخراط، ط 1، دار القلم: دمشق: 1406 هـ/ 1986 م.

21. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، محمود بن عبدالله الآلوسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت: بدون.

22. زاد المسير في علم التفسير، عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي، ط 3، المكتب الإسلامي، بيروت: 1404 هـ.

23. صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل البخاري تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، ط 3، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت: 1407 هـ/ 1987 م.

24. صحيح الجامع الصغير، محمد ناصر الدين الألباني، ط 3، المكتب الإسلامي، بيروت: 1408 هـ/ 1988 م.

25. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج بن مسلم بن ورد القشيري، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

26. صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم، عبدالرحمن بن محمد الدوسري، ط 1، دار المغني، الرياض: 1425 هـ.

27. العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، تحقيق: د. خالد بن عثمان السبت، ط 2، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة: 1426 هـ/ 2006 م.

28. فتح الرحيم الملك العلام في علم العقائد والتوحيد والأخلاق والأحكام المستنبطة من القرآن، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: عبد الرزاق البدر، ط 1، دار ابن الجوزي، الدمام: 1421 هـ/ 2000 م.

29. فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني، دار المعرفة، بيروت: 1379 هـ.

30. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، تحقيق: د. عبدالرحمن عميرة، ط 2، دار الوفاء، المنصورة، مصر، 1418 هـ/ 1997 م.

31. قواعد الترجيح عند المفسرين – دراسة نظرية تطبيقية–، حسين بن علي بن حسين الحربي، ط 1، دار القاسم، الرياض: 1417 هـ/ 1996 م.

32. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت: بدون.

33. الكشف والبيان، أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق الأستاذ نظير الساعدي، ط 1، دار إحياء التراث العربي، بيروت: 1422 هـ/ 2002 م.

34. الكليات، أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، ط 2، مؤسسة الرسالة، بيروت: 1419 هـ/ 1998 م.

35. اللباب في علوم الكتاب، عمر بن علي بن عادل الدمشقي الحنبلي، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت: 1419 هـ/ 1998 م.

36. لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري،، ط 1، دار صادر، بيروت: بدون.

37. مجاز القرآن، معمر بن المثنى التميمي، تحقيق: د. محمد فؤاد سزكين، ط 2، مؤسسة الرسالة، بيروت: 1401 هـ/ 1981 م.

38. مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن ابن محمد بن قاسم العاصمي النجدي، 1418 هـ/ 1997 م.

39. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، عبدالحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبدالله بن إبراهيم الأنصاري، والسيد عبد العال السيد إبراهيم، ط 2، بدون.

40. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، ط 2، دار الكتاب العربي، بيروت: 1993 هـ/ 1973 م.

41. المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1411 هـ/ 1990 م.

42. معالم التنزيل، الحسين بن مسعود البغوي، حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر وعثمان جمعة ضميرية وسليمان مسلم الحرش، ط 4، دار طيبة، الرياض: 1417 هـ/ 1997 م.

43. المفردات في غريب القرآن، الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، ضبط: هيثم طعيمي، ط 1، دار إحياء التراث العربي، بيروت: 1423 هـ/ 2003 م.

44. مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، ط 2، دار الجيل، بيروت: 1420 هـ/ 1999 م.

45. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، يحي بن شرف أبو زكريا النووي، تحقيق: خليل مأمون شيحا، ط 6، دار المعرفة، بيروت: 1420 هـ/ 1999 م.

46. المنافقون في القرآن الكريم د. عبد الله الحميدي، ط 1، دار المجتمع، جدة: 1409 هـ/ 1989 م.

47. النكت والعيون علي بن محمد بن حبيب الماوردي، تحقيق: السيد عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت: بدون.

48. النهاية في غريب الحديث والأثر، المبارك بن محمد الجزري، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت: 1399 هـ/ 1979 م.

49. الوسيط في تفسير القرآن المجيد، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، ط 1، دار الكتب العلمية بيروت: 1415 هـ/ 1994 م.